وفاء

أنا الآن في طريقي إلى منزل الدكتور عمر لأضع حداً لعلاقتي معه كمدونٍ لأعماله الأدبية ولأنهي صداقة ظننتها كانت تقوم على الاحترام و الوقار .....

في بداية الأمر لم أصدق الدكتور عمر يوم أعلمني بما هو مقدم عليه فالأمر كان ضرباً من الجنون لرجل في سنه ووقاره ... عدا عن اعتبار الأمر برمّته خيانة للفقيدة الدكتورة وفاء، زوجته وأقرب المقربين إليه ، التي فارقتنا منذ عام واحد فقط !! لكن عناد الدكتور عمر وإصراره على هذا القرار الأحمق ولّد عندي إحساساً بالاشمئزاز بات يرتسم على ملامحي كلما تذكرته ....

وعلى الرغم من يقيني التام أنها حماقة كبرى لكنني أقدّر في هذا الرجل شدة ثقته بي وإعلامي عن هذا الأمر رغم خطورته على سمعته في الوسط الأدبي والاجتماعي ..... كما أنه تشويهٌ لصورةِ وفائه الرائع .... هذا الوفاء الذي أثبته لي بالفعل لا بالقول .... فمن منّا يتصوّر أن يترك هذا الرجل ذو الخمسين ربيعاً طابور العزاء ومن فيه بعد إتمام الدفن لينطلق دون أن ينبس بحرف واحد هائماً في الطرقات وسالكاً كل درب كانت الراحلة وفاء قد سلكته معه ... ولكوني مدير أعماله و مدوّن رواياته العظيمة وليدة عقله الناضح بالعبقرية فقد رافقته ، كعادتي ، في هذا التجوال الذي لم أكن أتوقع أن ينتهي بنا في الثانية صباحاً أو هكذا حسبت .... وبدلاً من العودة إلى بيته لطلب الراحة وتناول الطعام الذي حبسه عن جوفه وجوفي إذا به يفاجأني فينطلق إلى محطة القطار ليقطع تذكرة ذهاب واحدة !! و لم أتعجب أنه تذكرني في آخر لحظة فقام بقطع تذكرة أخرى ثم عاد وانقطع عن العالم لبعض الوقت... يومها توقعت أن تسنح له الفرصة فيحظى بشيء من الهدوء والاستقرار ليريح جسده المنهك ، وجسدي طبعاً ، ثم يعيد النظر في خطوته الجديدة مدركاً لأبعاد الزمان و المكان .... وعندما بادرت بثنيه عن إتمام هذا التعذيب المضني والعودة إلى المنزل إذا به يتابع طريقه إلى داخل القطار ويجلس في مقعده ليبدأ معي حديثاً مفصلاً عن مناقب الفقيدة و أحلى ذكرياته معها دون أن يترك لي مجالاً للذهاب إلى

الاستراحة لإسكات عويل أمعائي المعذّبة .... و لم يتوقف سيل ذكرياته إلا عند وصـــولنا إلى مدينة دمشق، مسقط رأس حبّه الأول و الأخير !!

كانت أولى تباشير الفجر تطل على المدينة لتملأ سماءها و جبلها بألوان زاهية لم تصـــافح بصري من قبل وتملأ أشجارها و أزهارها بقطرات الندى المتلألئة كالجمان فتضفي علـــى هذا الصباح سحراً بهي اللون جميل العبق .....

عاد الدكتور إلى صمته السابق و اكتفى بالسير في تلك الطرق التي سبق ومشى بها مـــع محبوبته .... أما أنا فقد كاد النعاس يقتلني .... وراحت نوبات التثاؤب تتعاقـــب علـــيّ فأمِلتُ أن يدرك أن هناك خطأ ما في الزمان و المكان .... ولكن هيهات !!

رحت أتابع مسيرة " درب الآلام " مع هذا العاشق الولهان الذي لم يلتفت إلى أية كلمـــة كانت تصدر مني وكأن الصمم قد استولى على كل حواسّه ليغـــرق في عـــالم ذكرياتـــه بأصواتها المحببة و صورها التي اختزنها قلبه ففاضت أمام ناظريه عالماً ساحراً لا يرتبط بعالمنا البتة ...

أذكر أن فرحة الأطفال قد تملّكتني عندما لمحت عربة بائع السحلب تقترب منا فانتـــهزت الفرصة وانطلقت إلى البائع لأشتري كأسين من السحلب الساخن و أعود بها مسرعاً قبل أن يغير هذا العاشق السارح طريقه ... كان مذاقُ هذا الكأس عندي يعدل الدنيا وما فيها ... أما الدكتور عمر فقد ارتشف منه القليل و أعاد لي الباقي ...

وبعد مسيرة مضنية وصمت طويل انتهت رحلة العذاب التي خضتها مع الدكتور عمر أمام محل للأثريات في سوق الحميدية الساعة السادسة مساءً .... عندها خرج الدكتور عمـــر عن صمته فوقف يتأمل المحل وصاحبه لوهلة ثم التفت إلي وراح يحكي لي عن قصة هـــذا اللص الذي أجبره على شراء قطعة بأضعاف ثمنها إحراجاً له أمام الفقيدة ... وما هي إلا ثوانٍ حتى رأيته ينهال على صاحب المحل بشتائمٍ من كل عيار ومن فوق وتحت الحزام مما دفع الناس للتجمع حولنا فمنهم من يضحك ومنهم الذي يضرب كفّاً بكف ومنهم مـــن تصدّى للبائع الذي خرج إلينا ملوحاً بيده يردّ على سباب الدكتور له ..... وتطور الأمر

من مجرد رحلة لاستعادة الذكريات إلى زيارة غير متوقعة إلى قسم الشرطة ..... هنـــاك قمت بتعريف المساعد جميل على هوية الدكتور عمر و طلبت منه الاتصال بمدير رابطـــة اتحاد الكتّاب العرب في دمشق الذي حضر و أنهى الخلاف بصورة ســـلمية ثم دعانـــا إلى مكتبه لتناول الشاي ....

بعد خروجنا من مكتب مدير الرابطة قرر الدكتور عمر أخيراً العودة إلى منزله في حلـــب ... وكم كانت فرحتي عظيمة بهذا القرار الذي رسم السرور على وجهـــي المتعـــب .. وكاد، لولا الحياء ، أن يدفعني لإطلاق الزغاريد فرحاً و ابتهاجاً .....

أثلج الدكتور عمر صدري بصمته أثناء طريق العودة بالقطار تاركاً لي المجال كي أنام قرير العين كالأطفال ولا أستيقظ إلا مرغماً .....

رغم أنني مازلت أتندّر بهذه الحادثة التي لم و لن أنساها ما حييـــت ... إلا أنـــني أشـــعر بالأسى على ذكراها وقد قرر هذا الأحمق تشويه جمالها بسبب تلك الحسناء التي وقع نظره عليها في الشهر الماضي حين حضر أمسية أدبية ضمن أنشطة معرض الكتاب .... هنـــاك لمحها تقف بين الحاضرين متألقة بسحرها فقد مُلئت جمالاً من رأسها إلى أخمص قدميها ... كانت الحياة تشع منها في كل حركاتها مما دفع الدكتور عمر إلى إطالة النظر إليها قائلاً:

- إن الحياة بكل ما فيها من سحر وجمال تتجلّى الآن في هذا المخلوق الفائق الحسن ..

و لم يكن الدكتور عمر وحده المفتون بهذا الجمال الأخّاذ فقد أسرت هذه الحسناء أعـــين وعقول الحاضرين جميعاً بما فيهم المحاضر الذي كان لا يملّ من رفع عينيه عن الورقة لينظر إليها وحدها دون الحاضرين كأن المحاضرة موجهة لها وحدها .... إلا أن تأثيرهـــا علـــى الدكتور عمر كان أشدّ مما توقعت .... فقد ظلت تُشغل ناظريه خلال المحاضرة فلم يعـــر اهتماماً بأحد سواها ... وبعد المحاضرة وقف بالقرب منها محاولاً الإنصات إلى حـــديثها ... ثم لم يلبث أن رسم ابتسامة كبيرة على وجهه وغادر القاعة مسرعاً ...

بعد أن أدركتُه إذا بالدكتور يتحدث عن هذه الغادة الحسناء بانبهار و شغف وسألني إن كنت أستطيع إحضار مزيد من التفاصيل عنها !! حاولت إقناعه بإهمال أمرها لكنه أصرّ على طلبه ..... قلت في نفسي أنها نزوة وستمضي وقررت عدم إحضار أية معلومات ... لكنه في مساء اليوم التالي وقبيل حضوري إليه اتصل بي ليسألني إذا كنت قد وصلت إلى شيء فأجبته معتذراً بانشغالي .... يومها أغلق الهاتف دون أن يودعني كعادته .... وعندما قرعت جرس بابه فتح لي بوجه تعلوه ابتسامة لم أرها عليه من قبل وأعلمني أنه قرر إجراء تحول كبير في حياته !!

- لقد أججت مشاعري وحركت حبي الدفين في أعماقي ... لهذا سأتخطى كل الحدود لأبني جسر الحب الذي سيربط بين قلبينا إلى الأبد .....

تعجبت في قرارة نفسي من هذا التحول المفاجئ لرجل أحب زوجته فلم يكن يذكرها في حياتها إلا بكل خير ... وكان شديد الوفاء لها بعد وفاتها إلى درجة أنه كان يأكل في طبقها المفضل و يشرب من كأسها المزركش وينام في الجهة التي كانت تنام فيها ولا يتوقف عن الحديث عن طرائفها وغيرتها عليه بالإضافة إلى تكراره الحديثَ عن رحلة الذكريات ، كما كان يحب أن يسميها ، يوم سار هائماً على وجهه في طرقات حلب ودمشق تخليداً لذكراها .... عجبت له كيف تحول من أديب أرمل محترم متزن إلى مراهق مغرم بفتاة من جيل أولاده !! حاولت إقناع نفسي أنه ربما قد فوّت صبوة الأربعين ليعوضها في الخمسين ..... لكنني تراجعت عن هذا الاعتقاد الأحمق وعزّيت نفسي بأنها نزوة سيصحو منها ويعود بعدها إلى رشده ورجاحة عقله ....

كانت جلستنا مليئة ، على غير عادتها ، بأشعار جميل بثينة و قيس وليلى وقصائد إباحية من دواوين نزار قباني !! بدا الأمر غريباً عليّ فلم أعتد أن أرى الدكتور عمر في مثل هذه الحالة ..

أما أسوأ ما حصل فقد كان في مساء اليوم التالي يوم فتح الدكتور عمر باب شقّته ليظهر لي بشعره المصبوغ والمصفف بعناية حتى أنني لم أعرفه في بداية الأمـــر .... ثم اســـتقبلني بلباس لم أعتده عليه من قبل و أخبرني أنه سيلتقي بحسنائه مساء اليوم في المطعم ... فـــلا حاجة له بلقاء المساء الاعتيادي معي !!

عندما هممت بالخروج لمحت رواية وضعها الدكتور عمر على الطاولـــة الصـــغيرة قـــرب كرسيّه الهزّاز ... تأملتها عن كثب فإذا بها " لوليتا " !! عندها أدركت أن الرجـــل بـــدأ ينساق شيئاً فشيئاً إلى منحدر خطير سيهوي به وباسمه إلى الحضيض .... فما كان منه إلا أن سحب الرواية من الطاولة ووضعها على رف المكتبة ثم طلب مني الانصراف ليجهّـــز نفسه لهذا اللقاء على أن يخبرني بتفاصيله مساء اليوم التالي !!

خرجت من عنده وقد بدأت طبول الهواجس تدق في رأسي ..... ليس هذا هو الدكتور عمر الذي أعرفه و أحبه و أعشق حديثه ..... بدأت أشعر وكأنني خُدعت به وأنـــني أحمق الناس وأغباهم لإضاعة وقتي معه رغم أنني لم أفعل ذلك إلا لإيماني أنه أديب عبقري متفرّد .... و لم أرافقه في رحلة العذاب التي عانيت فيها إلا حباً بصحبته وللاستزادة مـــن علمه وثقافته إضافة إلى كوني مدوّنَ أعماله وكاتمَ أسراره الذي يثق به .... فمـــا الـــذي جرى الآن ؟ شعرت أنه عليّ أن أعود إلى بيته لتحذيره من خطورة ما سيقدم عليه .... عدت ولكن بعد فوات الأوان فقد خرجت الفريسة إلى صيّادها .....

في صبيحة اليوم التالي قررت الذهاب إليه بغير موعد و على غير العادة لكنني لم أجده ... وعندما عاودت الزيارة مساء كعادتي لم أجده أيضاً !!

حاولت الاتصال بأصدقائه وسؤالهم عنه فلم أحظ بجواب شاف مـــن أحـــد ... إلى أن قابلت صديقاً لي في اليوم التالي أخبرني أنه رآه في الحديقة العامة و لم يعرفه في بادئ الأمر بسبب شعره الأسود ولباسه الذي لم يكن يليق بسنّه !! رآه جالساً ساهياً وبيـــده باقـــة أزهارٍ زاهية الألوان كأنه ينتظر أحداً ما ، و أضاف قائلاً :

- أدرك صاحبك قبل أن يصير أضحوكة بين الناس ....

عند المساء تمكنت من الحديث مع الدكتور عمر هاتفياً فقد كان في البيـــت ... لكـــن الغريب في الأمر أنني سمعت موسيقى رقص شرقي ... وعندما طلبت منه موعداً أخـــبرني أنه مشغول ولا يريد إزعاجاً من أحد ثم أغلق سماعة الهاتف ....

ازداد شعوري بالخوف على الدكتور عمر و أدركت أنه قد سقط في مكيدة هذه الحسناء فقررت الذهاب إليه في صباح اليوم التالي و الحديث معه بمنتهى الصراحة مهمـــا كلـــف الأمر....

عندما وصلت وقرعت جرس الباب لم أستطع أن أنطق بكلمة واحدة لأنه استقبلني عنـــد الباب و لم يدعُني للدخول ... ثم بادرني بالقول مبتسماً:

- سأسافر لبضعة أسابيع وأعود فلا حاجة لمرافقتك لي .... لعلّك فهمت .....

أصابني كلامه بالذهول .... تلاشى كل شيء من رأسي و لم أعد أدرك ما علـــيّ قولـــه ... وزاد من حيرتي سماع صوت موسيقى الرقص الشرقي من وراء الباب ....

- " متلعثماً " .... هل ..... هل ستتزوجان !!
- " ضاحكاً " عن أي زواج تتحدث يبدو أنك لم تتناول فطورك بعد ..... سأمضي بعض الوقت ... وصدقني ستكون هذه الرحلة من أجمل أيام حيـــاتي ... وســـأقص عليك تفاصيلها بعد عودتي ... و الآن إلى اللقاء ...

ظل الذهول يتملّكني و لم أصدّق ما سمعته .... هذه أول مرة يقابلني فيها على عتبة الباب ثم يصرفني بسرعة !!! لا أصدق أنها أغوته بهذه السرعة !! وسيسافران معاً دون زواج !! إنها داهية ....

لقد قلب هذا الرجل موازين الحب و الوفاء وداسها بقدمه ساخراً مستهتراً !! أين رحلـــة الذكريات و الأكل في طبقها المفضل و الشرب من كأسها المزركش !! حقاً إنه منـــافق كبير .... أو عجوز خرف !!

اشعر بالاشمئزاز و أنا أقف الآن على باب هذا المتصابي لأزوره بناء على طلب منه ... لم أكن أرغب بالمجيء لولا إصراره .... ولست أدري إن كان سيملأ أجواء جلستنا برقص شرقي تتحفنا به حسناؤه التي أخرجته عن وقاره .....

- أهلاً يا عادل تفضل ....
- الحمد لله على السلامة يا دكتور ...
- تفضل و اجلس ..... أنا عاتب عليك فقد عدتُ منذ يومين وتركت لك أكثر من رسالة صوتية ... لكنك لم تسأل عنّي !!
- مشاغل يا دكتور ...
- تفضل قهوتك ... لقد جهّزتها قبل وصولك .... لا أعتقد أن المشاغل تنسيك التزامك الأدبي معي ... أليس كذلك ؟
- بالتأكيد ....
- " متعجباً " ... إجاباتك قصيرة على غير العادة !!
- " متهكّماً " الجواب القصير أكثر حكمة .... لعلّك أمضيت وقتاً ممتعاً ....
- بالتأكيد !! لقد كانت أجمل رحلة قضيتها في حياتي ....
- ولعلك تذكرت فيها المرحومة أيضاً .....
- " مبتسماً " ... لقد كانت معي في كل لحظة ....
- " متهكّماً " آه .... بالتأكيد .....
- .... إنها الحب الذي لن تطفأ ناره في قلبي ما حييت ...
- " متهكّماً .... يجول ببصره في أرجاء البيت "..... صحيح ... لكن الحي أبقى من الميت ... والتطور سنّة الكون ... ولابد أن تلك الحسناء قد عوضتك ما مضى و ملأت حياتك .....
- " مقاطعاً وباشمئزاز " حسناء ..... سأسامحك على حماقتك فأنت ...
- " مقاطعاً " دعوتني إلى بيتك لتنعتني بالحمق أيها المتصابي .... قف و انظر إلى المرآة .... تأمل شكلك .... لقد سقطّتَ من عيني وعين أصدقائك ومحبّيك وصرت أضحوكة لكل من شاهد تصابيك .... أنا لا أرى فرقاً بينك وبين عاشق لوليتا

فكلاكما أحمقان ..... اسمح لي بالانصراف من بيتك وحياتك فقد أضعتَ عمـــري ووقتي .....

- " متأملاً بهدوءٍ وجه عادل الغاضب " لا أمانع رحيلك .... ولكن قبل أن تفعل انظر جيداً و أجبني .... أين هي تلك الحسناء التي تتهمني بها ؟
- لست أنا من يجيب .... لعلّها في إحدى غرفك ... أو ..... أو ..... لا أدري ... و لا أبالي..
- الم أعلمك أنني سأخبرك بكل شيء بعد عودتي ....
- لم أعد أبالي ...
- " صارخاً " أما أنا فأبالي .... ليس بك بالطبع .... ولكن حـــتى لا تُســـيء أنـــت وأمثالك من الأذكياء فهمي و تتفوهوا عني بكلام فارغ أمام الناس ....
- " بجدّة " أنت كتاب مفتوح ومفضوح فكيف أسيئ فهمك !!
- لم تجب عن سؤالي أين هي هذه الفتاة ؟ قم وفتش البيت كله فلن تجد لها أثراً ....
- " متهكّماً " إذاً ... تكون في بيتها .... أليس لها بيت ؟ أم أنها .....
- أحمق ... لو أنك انتظرتني حتى أُتمّ حديثي ....
- لا أحتاج أن تحكي لي عن غراميّاتك ... أنت حرّ بحياتك ....
- " غاضباً " ليست هناك فتاة يا أحمق ..... انتظر حتى انتهي من حديثي يا أحمقَ مخلوق رأته عيني ....
- تفضّل ... وتوقف عن وصفي بالحمق فأنت أولى به ....
- سنرى ..... اجلس و اسمعني ، أحرق الله شيطانك ، و إيّـــاك أن تقـــاطعني ..... لعلك ما زلت تذكر تلك الفتاة التي شاهدناها في الأمسية الأدبية .... لقـــد كانـــت تشبه وفاء في كل شيء تقريباً وقد جعلتني أسرح بخيالي بعيداً إلى تلك الأيام الجميلـــة يوم التقيت بوفاء لأول مرة في اللاذقية و أنا أتمشّى على الكورنيش ... عندما وقفت بجانب هذه الفتاة لأسمع حديثها فإذا به لا يختلف كثيراً عن حـــديث وفـــاء العـــذب وصوتها الساحر .... هناك بدأت أولى مراحل إلهامي بروايتي الجديدة فلـــم أتمالـــك نفسي من السعادة وانطلقت لأشرع بكتابتها وحدي لأنني قررت أن أعايش أحداثها

كما جرت .... و لم أكن أريدك أن تكابد معي رحلتي الجديدة .... فرحت أعـــايش أجواء لقائي مع وفاء من جديد شاباً يافعاً تتدفق الحياة من جوارحه ... وسافرت إلى اللاذقية لأعايش لحظات اللقاء الذي لم ينسه قلبي ... ثم عدت إلى حلب محملاً بأحلى الذكريات و أجمل الوصف لرواياتي الجديدة واتصلت بك لأعلمك عن قراري بكتابتها وحدي لأنني أدرى بتفاصيلها ودقائقها منك ومن غيرك .... يا أحمق ..... بإمكانك الآن الانصراف من بيتي وحياتي فصحبة الصمت خيرٌ لي من صحبتك .....

اتضح لي الآن أنني أحمق بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى ... فقد تسرّعت في اتخـــاذ موقفٍ كلفني إقصائي عن حياة هذا الأديب الذي أغلق بابه دوني بكل ما أوتي من عزم .. لم أتصور أنه كان يستلهم أحداث قصته الجديدة من مخزون ذكرياته ليخلّد حبه ووفائـــه لزوجته ..... هذه صورة أخرى من صور الوفاء التي يثبتها لي بالفعل لا بـــالقول ..... رغم ذلك فأنا أحمد الله تعالى أنني لم أكن طرفاً هذه المرة في رحلة ذكرياته الجديدة التي لا أدري أين ومتى ستنتهي.

محمد جمال الدين السباعي
jamalsibaee64@gmail.com
حلب
2006/10/29